خصائصُ التعبير القرآنيّ
في سورةِ الإنسَان

Characteristics of the Quranic Expression in Al-Insan [Man] Sura

أ. م. د. نعيم سلمان البدري

كلية التربية / قسم اللغة العربية / جامعة واسط

Asst. Prof. Dr. Na`aeem Salman Al-Badri

Arabic Dept, College of Education, university of Wasat

... ملخص البحث...

إن هذا البحث يمثل جهداً متواضعاً نرمي منه إلى دراسة التعبير القرآني في سورة الإنسان، ومحاولة في سبيل فهم الخصائص والسمات التعبيرية التي تنماز (أو تتفرد) بها السورة، وذلك في تناولها لقصة الأبرار خاصة، (الآية ٥ – الآية٢٢). وقد قادني التأمل في هذه السورة الشريفة، وإطالة النظر في آياتها، وموازنة تلك الآيات مع آيات سور أخَر تتشابه معها، أو تقترب منها فيما تتناوله إلى جملة من قضايا اللغة وخصائص التعبير التي تستحق العناية والدراسة.

... Abstract ...

The current research is but a modest effort to explicate the Quranic Expression in Al-Insan Sura and an endeavour to fathom the characteristics and expressive traits the meant sura culls, and it tackles the tale of the brave in particular, iyat 5 v- iyat 22.However, contemplating the sacred sura, scrutinizing its iyats and setting a comparison between the sura and other concomitant suras lead me to a labyrinth of linguistic issues and characteristics of expressions worth tackling and studying.

التعبير القرآني في سورة الإنسان

يرد لفظ (التعبير) في اللغة للدلالة على تفسير الرؤيا، والإعراب عما في النفس، عَبَّرَ الرُّؤْيا فَسَّرَها، وعَبَّرَ عن فلان: تكلم عنه، واللسانُ يُعَبِّرُ عما في الضمير(١). وقد اسْتُعْمِلَ لفظُ (التعبير) قديماً في الكلام على أسلوب القرآن الكريم ولغته(٢)، وأكثر بعض المفسرين المحدثين من استعماله(٣). وجعله أستاذنا الدكتور فاضل صالح السامرائي عنوانا لكتابه (التعبير القرآني)، وهو يرى «أن التعبير القرآني تعبير فني مقصود. كل لفظة منه بل كل حرف فيه وضع وضعاً فنياً مقصوداً، ولم تراعَ في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل رُوعِيَ في هذا الوضع التعبير القرآني كله»(٤).

وقد بذل الدكتور السامرائي جهداً محموداً في بيان جوانب مهمة من أسرار التعبير القرآني. لكن دراسة التعبير القرآني بشكل عام، ودراسة خصائص كل سورة من سور القرآن الكريم بشكل خاص ما زالت تحتاج إلى بحث ودراسة بل إلى أبحاث ودراسات، فبعض السور تورد ألفاظاً أو تعبيرات أو أساليب تمثل ظواهر تلفت النظر وتدعو إلى التأمل(٥).

الأبرار في سورة الإنسان

البِرُّ في اللغة خلافُ العُقُوقِ تقول بررت والدي فأنا بَرٌّ والجمع أبـرار(٦)، والأبرارُ في القرآن: أولياء الله المطيعون في الدنيا(٧).

ويتكرر لفظ (الأبـرار) في القرآن الكريم ست مرات، في آل عمران: ﴿...وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ...﴾{١٩٣}، و﴿...وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ...﴾{١٩٦}، وفي الإنسان: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾{٥}، وفي الانفطار: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾{١٣}، وفي المطففين: ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾{١٨}، و﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾{٢٢}، وفُسِّرَ الأبرارُ في سورتي الانفطار والمطففين بأنهم أهل البيت عليهم السلام(٨).

أما الأبرار في سورة الإنسان فلهم قصة مشهورة في كتب التفسير والحديث الشريف، قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ): «وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك فنذر علي وفاطمة [والحسن والحسين] وفضة جارية لهما إن برآ مما بهما: ان يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه

وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ علي رضي الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها. فساءه ذلك فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد هنَّأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة»(٩). فالأبرار في هذه السورة هم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، ومعهم جاريتهم فضة. وقد خص الله جنتهم بما لم يخص به غيرهم من خصائص التعبير ووصفها بما لم يصف به غيرها كما سنوضح في هذا البحث.

وقد تجنب البحث الخوض في اختلاف المفسرين في سبب نزول السورة ومكان نزولها رغبة في الاختصار واكتفاء بما قدمه السيد الطباطبائي من دراسة مستفيضة وبحث تفصيلي تناول فيه الموضوع في جوانبه المختلفة.

تعدي الفعل لمفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبراً

يتكرر تعدي الفعل لمفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبراً في القرآن الكريم نحو (٣٥٠) مرة(١٠)، ويتكرر ذلك في سورة الإنسان وحدها تسع مرات، ثمان منها في الكلام على جنة الأبرار، وفي ثلاث عشرة آية، وهذه كمية عالية لم تحصل في أية سورة من سور القرآن الكريم، فالسورة الكريمة تمثل (١/ ٣٠٠) من القرآن تقريباً(١١)، وقد ورد الفعل (أطْعَمَ) في القرآن الكريم عشر مرات ولم يرد متعدياً لمفعولين إلا في سورة الإنسان وورد الفعل (حَلَّى) أربع مرات مبنياً للمجهول ولم يرد متعدياً لمفعولين إلا في سورة الإنسان وأن الأفعال (سقى)، (جزى)، (لَقَّى)، (وقى)، قد وردت في بعض آي القرآن متعدية لمفعول واحد وفي بعضها الآخر متعدية لمفعولين لكنها وردت جميعا في سورة الإنسان متعدية لمفعولين، فكأن الزيادة في تعدية الفعل تناسب الزيادة في الأجر والجزاء من الله تعالى، وحال البذل والعطاء والزيادة في الكرم التي وُصِفَ بها الأبرار، والله أعلم.

التكرار في سورة الإنسان

يرد التكرار في اللغة لجملة أغراض أهمها التوكيد والزيادة في الإفهام، قال الشيخ الطوسي (٤٦٠هـ): ومذهبُهم [يعني: العربَ] في التكرار إرادةً للتوكيد وزيادةً للإفهام معروفٌ...(١٢) ». ومن أمثلته في سورة الإنسان: تكرار

الفعل (أطعم) والفعل (خاف)، فجيء بهما مسندين إلى ضمير ظاهر (واو الجماعة) حينما وصف حال الأبرار فقال: ﴿...وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾{٧} و ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ...﴾{٨} ثم جيء بهما مسندين إلى ضمير مستتر حينما عَبَّرَ بهما عما أضمروه في أنفسهم فقال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ...﴾{٩} و﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾{١٠}.

ومنه أيضا تكرار الفعل (سقى) مرتين فجيء به مضارعاً مبنياً للمجهول حينما عطفه على مضارع مبنيّ للمجهول: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً...﴾{١٧} وجيء به ماضياً حينما عطفه على الماضي: ﴿... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾{٢١}، ومنه أيضا تكرار لفظ ﴿قَوَارِيرَ﴾ مرتين وجيء بالكلمتين متواليتين: ﴿...وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا {١٥} قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ...﴾{١٦}، وهذا قليل في القرآن، ومنه أيضاً تكرار الفعل (طاف) فجيء به مرة مبنيا للمجهول لما كان القصد منه وصف الأواني التي يطاف بها فقال: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾{١٥}، ثم جيء به مبنيا للمعلوم لما كان القصد منه وصف الفاعلين الذين يطوفون بهذه الآنية(١٣)،

فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً﴾{١٩}، ولم تجتمع اللفظتان ﴿يُطَافُ﴾ و﴿يَطُوفُ﴾ في القرآن الكريم إلا في سورة الإنسان!.

ومن عجائب التعبير القرآني أن كلمة (عيناً) منصوبة وردت ست مرات في القرآن، ثلاث منها في شأن الدنيا، وثلاث في شأن الآخرة وهي في وصف جنة الأبرار خاصة، مرتين في الإنسان: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾{٦}، ﴿عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾{١٨} ومرة في المطففين: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾{٢٨} وجيء بها في هذه الآيات الثلاث منصوبةً على المدح أو الاختصاص(١٤)، فكأنَّ كلمة ﴿عَيْناً﴾ منصوبةً خاصةٌ بالأبرار دون غيرهم من المؤمنين، ولذلك جيء بها منصوبة على المدح أو الاختصاص.!

وأن كلمة ﴿فِضَّةٍ﴾ وردت ست مرات أيضاً ثلاث منها في شأن الدنيا، وثلاث في شأن الآخرة في وصف جنة الأبرار خاصة وفي سورة الإنسان: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ... {١٥} قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ...{١٦}... وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ...﴾{٢١}.

وأن كلمة ﴿كَأْسٍ﴾ قد وردت ست مرات أيضاً ثلاث منها منصوبة وثلاث مجرورة، وقد جيء بها مجرورة مرة ومنصوبة مرة في الإنسان فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾{٥}، ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾{١٧}، ولم تتكرر الكلمة إلا في سورة الإنسان.

وأن كلمة ﴿مِزَاجُ﴾ لم ترد إلا ثلاث مرات في القرآن مرتين في سورة لإنسان في وصف شراب الأبرار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾{٥}، ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾{١٧}، ومرة في المطففين في وصف

شراب الأبرار أيضاً، ولم تتكرر الكلمة إلا في سورة الإنسان.

وأن الفعل (سقى) في القرآن الكريم يرد ست مرات، ثلاث في شأن جهنم، وثلاث في شأن الجنة(١٥)، والأفعال الثلاثة التي في شأن جهنم اثنان منها بصيغة المضارع، في إبراهيم: ﴿مِن وَرَآئِـهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ﴾{١٦}، وفي الغاشية: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾{٥}، وواحد ماضٍ في سورة محمد: ﴿... وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ﴾{١٥}، والأفعال الثلاثة التي في شأن الجنة اثنان منها بصيغة المضارع، في الإنسان: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾{١٧}، وفي المطففين: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾{٢٥}، وواحد ماضٍ، في الإنسان: ﴿... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾{٢١} وهذه جميعاً للأبرار ذلك أنَّ آية المطففين أيضاً جاءت في صفة جنة الأبرار، ومن عجب أن يكون الفعل (سقى) في الجنة للأبرار خاصة دون غيرهم من المؤمنين. ولم يذكر الفاعل إلا في قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فكأنّ الملك الجليل يسقيهم بنفسه تكريماً لهم وتعظيماً لمقامهم عنده، قال السيد الطباطبائي: «وقد أسقط تعالى في قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ الوسائط كلها ونسب سقيهم إلى نفسه وهذا أفضل ما ذكره الله تعالى من النعيم الموهوب لهم في الجنة(١٦)».

توكيد الفعل بالمصدر

يتكرر توكيد الفعل بالمصدر (المفعول المطلق) بصيغة (تفعيل) (٢٦) مرة في القرآن الكريم حسب إحصائي، ويتكرر ذلك في سورة الإنسان وحدها (٥) مرات، ثلاث منها في الكلام على جنة الأبرار: (تفجيرا)، (تذليلا)، (تقديرا)، واثنتان في غير ذلك.

إن نسبة ورود المصدر (تفعيل) موكِّداً لفعله في سورة الإنسان تُمَثِّل نحو خمس ما ورد في القرآن الكريم، ونسبة وروده في الكلام على جنة الأبرار تمثل (٣) من (٢٦) وهي نسبة عالية كما هو واضح، فالسورة الكريمة تمثل (١/ ٣٠٠) من القرآن الكريم كما قدمت والسبب في هذه النسبة العالية يرجع فيما أرى إلى مراعاة مقام الأبرار فخصَّهم الله تعالى بما لم يخص به غيرهم فجاء توكيد الفعل بالمصدر بهذه النسبة العالية في وصف جنتهم خاصة دون سائر الجنان فقال: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾{٦}، و﴿...وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾{١٤}، و﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾{١٦}، ولم ترد هذه المصادر: (تفجيراً)، (تذليلاً)، (تقديراً) في الكلام على الجنة إلا في سورة الإنسان!.

حال غريبة في القرآن الكريم

وهي قوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ...﴾{٢١} فَجِيْءَ بالحال من اسم الفاعل المنقوص (عالياً) مضافاً إليه الضمير (هم) ثم رفع به الفاعل (ثياب)، فثياب فاعل لاسم الفاعل. ومجيء الحال من اسم الفاعل المنقوص المشتق من الفعل الثلاثي مضافاً إليه الضمير نادر جداً في كلام العرب، وقد حاولت أن أعثر على مثل آخر في كلامهم شعراً ونثراً فلم أفلح، وأما مجيء الحال من اسم الفاعل المنقوص المشتق من الفعل الثلاثي مضافاً إليه الضمير وكونه رافعاً للفاعل كما في الآية الكريمة فلا أبعد عن الصواب إذا قلت إن هذا التركيب لم يرد إلا في هذه الآية وليس له نظير في كلام العرب في حدود ما أعلم.

الاسم الرباعي المزيد والاسم الخماسي المزيد

وقف الشيخ محمد عبدالخالق عضيمة عند ظاهرة تُلْفِت النظر في القرآن الكريم إذ وجد أن «الاسم الرباعي المزيد بحرفين، وهو أقصى ما يصل إليه الاسم الرباعي بالزيادة، إن كان غير مصدر جاء منه ثلاثة ألفاظ: العنكبوت وكررت في آية واحدة، وزمهرير وقمطرير. والمزيد من الخماسي: زنجبيلا، سلسبيلا، اجتمعت هذه الألفاظ الأربعة في سورة واحدة هي سورة الإنسان»(١٧) وتساءل الشيخ متعجباً: «لِمَ اجتمعت ولِمْ تتفرق، ولِمَ كان اجتماعها في هذه السورة القصيرة دون غيرها من طوال المفصل؟ أنا أقول الله أَعلم بأسرار كتابه»(١٨). وقد تعجب من هذا أيضا الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي(١٩). فما دلالة اجتماع هذه المفردات في هذه السورة دون غيرها من السور؟.

إن المقام هنا مقام مدح وثناء على الأبرار الذين آثروا على أنفسهم وتصدقوا بطعامهم، ولا شك أن هؤلاء الأبرار هم أشد الناس خوفاً من الله تعالى فهل جيء بالرباعي المزيد هنا ليناسب الزيادة في الخوف عندهم، وجيء بالخماسي المزيد ليناسب الزيادة في الأجر والجزاء من الله تعالى؟. ذلك ما أميل إلى ترجيحه وهو ما سينتهي إليه البحث.

ومن عجب أن كل واحدة من هذه الكلمات الأربع تحكي صوتيا معناها فالقمطرير: الشديد(٢٠)، وهي تحكي معنى الشدة، والزمهرير: أشد ما يكون

من البرد(٢١) وهي تحكي معنى شدة البرد وأثره، وهاتان الكلمتان في العذاب، والسلسبيل: الشراب السهل اللذيذ وهو صفة لما كان غاية في السلاسة(٢٢) وهي تحكي معنى السلاسة والسهولة، والزنجبيل: «ضرب من القرفة طيب الطعم، يلذع اللسان ويربي بالعسل يستدفع به المضار إذا مزج به الشراب فاق في الإلذاذ»(٢٣) وفيها معنى السلاسة والعذوبة، وهاتان الكلمتان في الجنة، فجعل الشدة في أصوات كلمتي العذاب، وجعل السلاسة والسهولة في أصوات كلمتي الثواب والجزاء.!

الفعل الماضي والفعل المضارع

وصف الله تعالى حال الأبرار وهم أهل البيت عليهم السلام بأنهم: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً...﴾{٧}، ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ...﴾{٨}، فجاء بالفعل مضارعاً ثم بيّن لسان حالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ...﴾{٩} و﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾{١٠}، فجاء بالفعل مضارعاً أيضاً، فهناك خمسة أفعال مضارعة: (يوفون)، (يخافون)، (يطعمون)، (نطعمكم)، (نخاف)، وهذه الأفعال مستمرة منهم، فالإيفاء بالنذر، وإطعام الطعام، والخوف من الله تعالى، من أخلاق أهل البيت عليهم السلام، والفعل المضارع يدل على الدوام(٢٤). أما حينما ذكر جزاءهم فجاء بالفعل ماضياً فقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾{١١}، و﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾{١٢}، و﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾{١٤}، و﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾{١٦}، و﴿...وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾{٢١}، و﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾{٢٢}، فجاء بالفعل ماضياً والمراد به المستقبل واستعمال الماضي هنا تنبيهاً على تحقق وقوعه، قال التفتازاني (ت٧٩٢ هـ): «التعبير عن المعنى المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه نحو قوله: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ...»(٢٥)، وقال الثعالبي (ت ٨٧٥هـ): «ويفيدنا استعمال الماضي [موضع المستقبل] تحقيقاً في الفعل وإثباتا له وهذا مهيع في اللغة»(٢٦) فاستعمال الماضي في المستقبل أعلى وأبلغ

في الدلالة على تحقق وقوعه قال الزركشي (ت٧٩٤ هـ): «والفائدة في الماضي إذا أُخْبِرَ به عن المستقبل الذي لم يوجد أنه أبلغ وأعظم موقعاً لتنزيله منزلة الواقع(٢٧)».
وقد تكرر مجيء الفعل الماضي الدال على الاستقبال في سورة الإنسان تسع مرات: (فوقاهم، ولقاهم، وجزاهم، وذللت، قدروها، وحلوا، وسقاهم، كان لكم، وكان سعيكم) خلال إحدى عشرة آية تأكيداً لهذه الحقيقة، وهذا لم يحصل في أي سورة أخرى من سور القرآن الكريم في الكلام على الجنة، ولعل في هذا أيضاً زيادة على ما ذُكِرَ إشارة أخرى إلى أن الجنة قد أُعِدَّتْ لهم في الزمن الماضي حقيقة.

الحرير في سورة الإنسان

وردت لفظة ﴿حَرِيرٌ﴾ في سورة الحج: ﴿...وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ {٢٣} وفي فاطر: ﴿...وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ {٣٣}، وفي الإنسان: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ {١٢} ولم يُذْكَر اللباس في الإنسان وإنما عطف الحرير على الجنة، والراجح لدي في هذا أنه راجع إلى أن الحرير في هذه السورة ينماز عما في تينك السورتين، فالحرير هنا أكثر من لباس، إذ روي عن الباقرعليه السلام قوله في تفسير الآية: «جنة يسكنونها وحريراً يفترشونه ويلبسونه[٢٨]» فالحرير هنا يُلْبَسُ وَيُفْتَرَشُ، وكذلك السندس في قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ...﴾ {٢١}، إذ رُوِيَ عن الصادقعليه السلام في تفسيرها: «تعلوهم الثياب فيلبسونها[٢٩]» أي: ثياب السندس، وقد ذُكِرَ السندسُ في هذه الآية وفي موضعين آخرين من القرآن، في الكهف: ﴿... وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ...﴾، وفي الدخان: ﴿...يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ...﴾ وقال الطبري (ت٣١٠هـ) في تفسير آية الإنسان: «يعني فوق هؤلاء الأبرار ثياب سندس[٣٠]» فثياب السندس في جنة الأبرار تعلوهم فيلبسونها وهي فوقهم وليس الأمر كذلك في آيتي الكهف والدخان.

وقد جيء بـ ﴿سُندُسٍ﴾ مجرورة بـ ﴿مِن﴾ في تينك الآيتين وجيء بها مضافة إلى ﴿ثِيَابُ﴾ في آية الإنسان وحدها فكأن في ذلك تمييزاً لها وإن كانت الإضافة هنا بمعنى من. وجيء بـ ﴿إِسْتَبْرَقٌ﴾ مجرورة في آيتي الكهف والدخان لأنها معطوفة

على ﴿سُندُسٍ﴾، ومعنى العطف هنا أنَّ ما يلبسون هو من سندس ومن إستبرق، أما في آية الإنسان فجيء بها مرفوعة لأنها معطوفة على ﴿سُندُسٍ﴾، والعطف على نية تكرار العامل(٣١)، فكأنه قال: «عاليهم ثياب سندس وعاليهم إستبرق(٣٢)». وهذا يرجح ما ذهبت إليه من أنَّ الحرير في هذه السورة هو أكثر من لباس، فالإستبرق فوقهم ﴿عَالِيَهُمْ﴾ وكذلك ثياب السندس، والحرير معطوف على الجنة في آية الإنسان: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ {١٢} دون غيرها، فثمة عناية بالحرير في هذه السورة أكثر مما في غيرها.

تحليل الآيات

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً {٥}... ۞ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾{١٧}

يتكرر ذكر﴿الكَأْسِ﴾ ست مرات في القرآن الكريم، في الصافات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ {٤٥} بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ {٤٦} لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ {٤٧}، والمعين: الجارية، والظاهرة للعيون(٣٣)، ولا فيها غول ولا هم عنها ينزفون: أي لا تغتال عقولهم، ولا تنزفها: أي تذهب بها(٣٤)، وفي الطور: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾{٢٣}، قال السيد الطباطبائي: «التنازع في الكأس تعاطيها والاجتماع على تناولها»(٣٥)، وفي الواقعة: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ {١٨} لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾{١٩}، وفي النبأ: ﴿وَكَأْساً دِهَاقاً﴾{٣٤}، ودهاقا: مَلْأى، مترعة، أو: متتابعة. وفي آيتي الإنسان (الآيتين...)، ونرى أن صفة الكأس فيهما قد تجاوزت كل ما هو موجود في آيات السور الأخر إذ تتردد المعاني المذكورات في تلك السور بين نفي الضرر، وبيان اللذة، وعدم اللغو والإثم، ومَلْء الكأس، وبياضها. أما في الإنسان فإن الكأس موصوفة بـ ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾، و﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾ قال القرطبي(ت٦٧١هـ): «تمزج لهم بالكافور وتختم بالمسك»(٣٦) وقال «كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبروده لأن

الكافور لا يشرب(٣٧)»، وقال الطوسي (ت٤٦٠هـ): «فالزنجبيل ضرب من القرفة طيب الطعم، يلذع اللسان ويربي بالعسل يستدفع به المضار إذا مزج به الشراب فاق في الإلذاذ والعرب تستطيب الزنجبيل جداً(٣٨)»، فقد وصف الشراب هنا بجمع من الصفات: طيب الرائحة، ولذاذة الطعم، والبرودة، ولذع اللسان، وبياض اللون، ولم يرد ذكر الزنجبيل والكافور في صفات شراب أهل الجنة إلا في هذه السورة، ولم يرد لفظ (مزاجها) إلا في هذه السورة وفي المطففين: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾{٢٧}، والمزاج من: «مزج الشراب: خلطه بغيره(٣٩)»والكلام في المطففين في وصف جنة الأبرار أيضا، وقد ذكر الله تعالى في شراب أهل الجنة: اللبن والماء والعسل والخمر(٤٠) ولم يرد ذكر المزاج إلا حيث بيَّنا فكأنَّ صفة المزاج في شرابهم خاصة.

﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾{٦}

وُصِفَتْ كلمة ﴿عَيْناً﴾ بالجملة الفعلية ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، ولم يرد مثل هذا في القرآن الكريم إلا في هذه الآية، وفي آية المطففين: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾{٢٨}، والكلام في كلتا الآيتين على الأبرار فهذا التعبير خاص بجنتهم. ولم يرد تفجير العين في الكلام على الجنة إلاّ في هذه الآية أيضا، وقد نُسِبَ التفجيرُ لهم: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾، وجيء بالمصدر ﴿تَفْجِيراً﴾ لتوكيد الفعل وتقويته، فهذا التعبير خاص بجنتهم أيضاً.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾{٨}

قدم المسكين على اليتيم، واليتيم على الأسير، فبدأ بالأسبق والأقدم، ثم الذي

يليه، ثم الذي يليه، إذ يكاد يتفق المفسرون ورواة الأحاديث والأخبار في قصة إطعامهم على أن المسكين طرق باب علي وفاطمة عليهما السلام أولاً، ثم تلاه اليتيم في الليلة الثانية (أو في الليلة نفسها)(٤١)، ثم الأسير في الثالثة (أو في الليلة نفسها)(٤٢).

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً﴾{٩}

من لطيف التعبير قوله تعالى في أول آية جرت على لسان الأبرار: ﴿... لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً﴾ {٩}، وقوله في آخر آية وردت في جزائهم: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ {٢٢}، فجعل آخر آية في جزائهم تقابل أول آية جرت على لسانهم، وقابل: لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾، وقابل: ولا شكورا، بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾. وأنه تعالى قدم الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء﴾، كما قدم الجار والمجرور ﴿مِنكُمْ﴾ في قوله: لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء.

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً {١١} وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾{١٢}

قال تعالى في وصف الأبرار في سورة الإنسان: ﴿...وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾{٧}، فوصف اليوم بالمستطير وهو اسم فاعل من (استطار): استطار الحريق: فَشَا والمُسْتَطِيرُ المُنْتَشِرُ أو المُمْتَد أو الفاشي(٤٣)، ثم قال على لسان حالهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾{١٠}، والعبوس الذي تعبس فيه الوجوه، والقمطرير الشديد(٤٤).

وذكر الله تعالى جزاءهم فقال: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ {١١} فقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾لأنه قال قبل ذلك: ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ والنضرة: الحسن والرونق(٤٥)، فجعل تعالى النضرة والسرور تقابل العبوس والشدة.

وقد تكررت لفظة ﴿وقاهم﴾ ثلاث مرات في القرآن الكريم في الدخان: ﴿... وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ {٥٦}، وفي الطور: ﴿... وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ {١٨}، وفي الإنسان: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ..﴾ {١١}، ونرى أنه تعالى أسند الفعل إلى الضمير المستتر في آية الدخان لأن فيها إيجازاً في الكلام على الجنة (الآية ٥١–الآية ٥٧)، وأسند الفعل إلى اسم ظاهر في آيتي الطور والإنسان لأن فيهما تفصيلاً أكثر في الكلام على الجنة (الطور: الآيـة١٧–الآيـة٢٧، والإنسان: الآية ٥–الآية٢٢)، وأسند الفعل في آية الطور إلى ﴿رَبُّهُمْ﴾ لأن ضمير الغائب ﴿هم﴾ يتكرر في هذه السورة كثيراً (٣٥ مرة) إذ تكلم على صنفين من الناس المكذبين وأهل النار، والمتقين. وأسند الفعل في آية الإنسان إلى لفظ الجلالة لأن ضمير المتكلم المعبر عن الذات الإلهية يتكرر في هذه السورة كثيراً (١٦ مرة).

ومن لطيف التناسب أنه تعالى قال: في الدخان: ﴿...وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ {٥٦}، وفي الطور: ﴿... وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ {١٨} لأن كلمة﴿عَذَابَ﴾ قد تكررت في كل منهما (في الدخان: الآية ١١، و٤٨، و٥٦. وفي الطور: الآية ٧، و١٨، و٢٧)، ولم ترد في سورة الإنسان. وقال تعالى في الإنسان: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ..﴾ {١١} لأنه قال فيها: ﴿... وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾{٧}.

ومن لطيف التقديم والتأخير مراعاة مراتب السعادة والنعمة إذ بدأ بذكر الوقاية

من الشر أولاً، فقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ...﴾ {١١}، ثم ذكر النضرة والسرور فقال: ﴿... وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾{١١} قال الطوسي (ت٤٦٠هـ): «والسرور اعتقاد وصول المنافع إليه في المستقبل(٤٦)» ثم ذكر الجنة فقال تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ {١٢} وجعلها آخر مراتب السعادة والنعمة.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾{١٤}

ذُكِرَ الظل والظلال في وصف الجنة في عدد من آي القرآن، في النساء: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ... وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً﴾{٥٧}، وفي الرعد: ﴿...أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا...﴾ {٣٥}، وفي يس: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ﴾ {٥٦}، وفي المرسلات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ {٤١}، فالظل أو الظلال في هذه الآيات ممدود أو ظليل أو دائم أو غير موصوف بوصف ما، أما في الإنسان فالظلال موصوفة بالدنو وهو القرب وتلك صفة زائدة عما ذُكِرَ في آيات السور الأخر.

على أنَّ المذكورين في آيات السور الأخر يدخلون في الظل كما في آية (النساء)، أو هم في ظلال كما في آيتي (يس) و(المرسلات)، أو أن الظل دائم في جنتهم كما في آية (الرعد)، أما في آية الإنسان فالظلال هي التي تدنو عليهم، وأنه قدم الجار والمجرور (عليهم) على الفاعل (ظلالها) للاعتناء بهم، أو بياناً لفضلهم (الأبرار)(٤٧).

أما القطوف فقد ذكرت مرتين في القرآن الكريم في الحاقة: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ {٢٣}، وفي الإنسان: ﴿... وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ {١٤}، ففي الحاقة وُصِفَت القطوف بالدنو، وفُسِّرَت (دانية) بأنها قريبة ممن يتناولها، يتناول الرجل منها وهو

نائم، أما في الإنسان فالقطوف تُذَلَّلُ تذليلاً، قال الجوهري(ت٣٩٣هـ): «والذل بالكسر: اللينُ وهو ضد الصعوبة... وتَذَلَّلَ لَهُ أي: خَضَعَ»(٤٨)، والذل والتذليل أبلغ من الدنو في الدلالة على تسخيرها لهم وسهولة تناولها، وقد استعمل منه المصدر (المفعول المطلق) زيادة في توكيد الفعل وتقويته، على أنه استعمل اسم الفاعل (دانية) في الحاقة ليدل على الثبوت في صفة الدنو، أما في الإنسان فجاء بالفعل ليدل على الحدوث والتجدد وهذا يضفي معنى زائداً في القطوف فهي تذلل لهم حالا بعد حال(٤٩)، قال مجاهد (ت ١٠٤هـ): «إذا قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدنت حتى ينالها وإن اضطجع تدلت حتى ينالها فذلك تذليلها»(٥٠). فوصف الظلال والقطوف في آية الإنسان أعلى وأفضل مما ذُكِرَ في آيات السور الأخر.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا {١٥} قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾{١٦}

يتكرر الفعل ﴿يُطَافُ﴾ ثلاث مرات في القرآن الكريم في الصافات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ﴾{٤٥}(٥١)، وفي الزخرف: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ...﴾{٧١}، وفي الإنسان (الآية...)، ونرى أنه تعالى ذكر في آية الزخرف (الصِّحَاف: جمع: صَحْفَة) وهي القصاع(٥٢)، وذكر في آية الإنسان (الآنية: جمع: إناء) ويظهر أنهما يستعملان لحمل الطعام دون الشراب بقرينة ذكر الأكواب معهما(٥٣)، ونرى أنه تعالى وصف الصحاف في (الزخرف) بأنها (من ذهب) وذكر الذهب أيضا فيها في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ...﴾{٥٣} وذكر فيها (الزخرف) فقال: ﴿... وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ. وَزُخْرُفاً...﴾{٣٣}،

{٣٤} وبه سميت السورة وهو الذهب أيضاً، ووصف الآنية بأنها ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ وذكر الفضة في موضعين آخرين من سورة الإنسان: ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ...﴾{١٦} و﴿...وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ...﴾{٢١} وقد ذكر بعض المفسرين أن فضة الجنة شفافة(٥٤)، وَنُقِلَ عن الصادق عليه السلام قوله: «ينفذ البصر في فضة الجنة كما ينفذ في الزجاج»(٥٥) وقال الطبرسي (ت٥٦٠هـ) إن الفضة في الجنة أفضل من الذهب(٥٦).

ويذكر لفظ (الأكواب)(٥٧) أربع مرات في القرآن الكريم في سورة الزخرف: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ...﴾{٧١}، وفي الغاشية: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾{١٤}، وفي الواقعة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ...﴾{١٧-١٨}، ولم توصف الأكواب في سورتي الزخرف والواقعة وفي الغاشية وصفت بأنها (موضوعة) وقال الطبري (ت٣١٠هـ): «وعنى بقوله موضوعة أنها موضوعة على حافة العين الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها ملأى من الشراب(٥٨)». وقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): «موضوعة:...مُعَدَّة مُرْصَدَة لمن أرادها»(٥٩).

أما الأكواب في سورة الإنسان فقد وصفت بصفات مختلفات فهي: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ﴾، وأنها ﴿مِن فِضَّةٍ﴾، وأنهم ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ فثَمَّ تفصيل أكثر وصفات لم تذكر في آيات السور الأُخَر. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن وصف القوارير بأنها من فضة مبني على التشبيه البليغ أي أنها في صفاء الفضة وإن لم تكن منها حقيقة(٦٠)، والراجح أن الأكواب في الآية الكريمة من الفضة حقيقة إذ ليس ثم ما يدعو إلى حمل اللفظ على التشبيه مع كون الفضة في الجنة شفافة إذ نقل الطبرسي (ت٥٦٠هـ) عن الصادق عليه السلام قوله: «ينفذ البصر في فضة الجنة كما ينفذ في الزجاج(٦١)»، ونقل الطبري (ت٣١٠هـ) جملة من الأحاديث عن أئمة التفسير تفيد

بأن المراد هنا: صفاء القوارير في بياض الفضة وأن القوارير هي من فضة(٦٢).

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً﴾{١٩}

يتكرر الفعل (يطوف) ثلاث مرات في القرآن الكريم، في الطور: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾{٢٤}، وفي الواقعة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾{١٧}، وفي الإنسان (الآية)، ونرى أنه وصف (الولدان) في الواقعة بأنهم ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ ولم يرد فيها ذِكْرُ اللؤلؤ، ووصف الطائفين في آية الإنسان بأنهم ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ وقد فُسِّرَ المخلدون بأنهم: لا يموتون، مُسَوَّرُونَ، مُقَرَّطُونَ(٦٣)، أما في آية الطور فهم غلمان ولا شك أن الولد أصغر من الغلام وهو أترف وأرق في الخدمة، وقال في آية الطور ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ و﴿كأَنَّ﴾ تفيد التشبيه، أما في آية الإنسان فقال (حسبتهم) وحسب تفيد الظن وليس التشبيه كالظن، فالظن يفيد ما لا يفيده التشبيه فالتشبيه يفيد أن الذي يراهم يعرف أنهم غلمان أما الظن فيفيد بأن الذي يراهم يظن أنهم لؤلؤ من حسنهم وبهائهم وهذا أبلغ وأعلى. ووصف اللؤلؤ في آية الطور بأنه مكنون وَفُسِّرَ المكنون بأنه: المصون في كن، أو الرطب، أو المخزون(٦٤)، ووصف في آية الإنسان بأنه منثور وفي لفظة المنثور دلالة على كثرة الولدان، قال قتادة (ت١١٨هـ): «حسبتهم من حسنهم وكثرتهم لؤلؤاً منثوراً(٦٥)». فوصف الطائفين في سور الإنسان أفضل وأعلى مما وصفوا به في سورتي الواقعة والطور لأنهم يطوفون على الأبرار الذين هم أهل البيت عليهم السلام.

ومن لطيف التعبير أن تخلو هذه السورة الشريفة على ما فيها من تفصيل ووصف للجنة من ذِكْرِ الحور العين، قال الآلوسي (ت١٢٧٠هـ): «ومن اللطائف على القول

بنزولها فيهم [يعني: أهل البيت عليهم السلام] أنه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين وإنما صرح عز وجل بولدان مخلدين رعاية لحرمة البتول وقرة عين الرسول...(٦٦)».

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ {٢٠}

لم يرد لفظ (الملك) في الكلام على الجنة إلا في هذه الآية الكريمة وقد جعله الله تعالى ﴿مُلْكاً كَبِيراً﴾ وجاء عن عباس بن يزيد: «قال قلت لأبي عبدالله [الصادق عليه السلام]...أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾. ما هذا الملك الكبير الذي كبره الله حتى سماه كبيرا؟ قال: فقال لي: إذا أدخل الله أهل الجنةِ الجنةَ أرسل رسولا إلى ولي من أوليائه فيجد الحجبة على بابه فيقول له [الحجبة]: قف حتى نستأذن لك فما يصل إليه رسول ربه إلا بإذن فهو قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ...﴾(٦٧)» وجاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «يعني بذلك ولي الله وما هو فيه من الكرامة والنعيم والملك العظيم، أن الملائكة من رسل الله عز ذكره يستأذنون عليه فلا يدخلون عليه إلا بإذنه فذلك الملك العظيم الكبير(٦٨)». وإن التأمل في الآية الكريمة يفضي إلى أن المراد بالملك الكبير فيها ملك الأبرار في الجنة وسيادتهم فالآيات الكريمات نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ومعهم جاريتهم، فأما علي عليه السلام فقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «أوحِيَ إليَّ في عليّ ثلاثٌ أنه سيد المسلمين وإمام المتقين وقائد الغر المُحَجَّلِينَ(٦٩)» وأما فاطمة عليها السلام فهي سيدة نساء أهل الجنة كما في صحيح البخاري(٧٠)، وأما الحسن والحسين عليهما السلام فهما سيدا شباب أهل الجنة(٧١)، فهؤلاء عليهم السلام أسياد أهل الجنة وأمراؤها فالملك الكبير إمارة وسيادة في الجنة وهذا لا يناقض تفسير الصادقين عليهما السلام إذ من لوازم الملك الكبير التسليم والاستئذان.

﴿...وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ...﴾{٢١}

يتكرر قوله تعالى: ﴿...يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ...﴾ في ثلاث سور، في الكهف (٣١)، وفي الحج (٢٣)، وفي فاطر (٣٣)، وقد جاءت جميعا بالفعل المضارع ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، أما في سورة الإنسان حيث جنة الأبرار فجيء بالفعل ماضياً ﴿وَحُلُّوا﴾ تنبيها على تحقق وقوعه، وتقدمت الإشارة إلى أن هذا أبلغ وأعظم موقعاً(٧٢)، ومن خصائص التعبير في هذه السورة الشريفة قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ﴾ من غير حرف الجر ﴿مِنْ﴾، وَجَرُّ لفظ ﴿أَسَاوِرَ﴾ بـ ﴿مِنْ﴾ في آيات السور الثلاث!. وقد اختلف في ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ فقال الأخفش (ت٢١٥هـ) إن ﴿مِنْ﴾ هنا زائدة، وقيل إنها لبيان الجنس، وقيل إنها للتبعيض(٧٣)، والذي يتجه لي أنها هنا للتبعيض إذ لم تَطَّرِدْ زيادتها في الإيجاب خلافاً للأخفش والكوفيين(٧٤)، ولم يتقدم جنس أو شيء فيه إبهام فيحتاج إلى بيان. ولا شك أن التبعيض يتنافى مع الزيادة في الكرم التي شغلت السورة ولذلك جيء بـ ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ﴾ من غير حرف الجر ﴿مِنْ﴾. أما وصف الأساور بأنها ﴿مِّن فَضَّةٍ﴾ فقد تقدم الكلام على ما يرجح السبب في اختيار الفضة في سورة الإنسان في الكلام على الآيتين (١٥) و(١٦) منها(٧٥).

... الخاتمة...

يمثل هذا البحث كما قدمت محاولة في سبيل فهم خصائص التعبير في سورة الإنسان، فالسورة الشريفة تناولت قصة مشهورة تداولتها كتب التفسير ورواة الأحاديث والأخبار، فالأبرار في هذه السورة على ما قدمت هم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ومعهم فضة خادمة الزهراء عليها السلام.

وقد خص الله تعالى جنتهم بما لم يخص به غيرها، فاستعمل في وصفها الفعل الماضي معبرا عن المستقبل أكثر مما استعمله في أي موضع آخر من القرآن الكريم، وجاء بالفعل متعديا لمفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبراً بنسبة عالية جدا، واستعمل المصدر (المفعول المطلق) بصيغة (تفعيل) بنسبة عالية أيضا، وكرر ألفاظاً بعينها لم تتكرر إلا في هذه السورة، وذكر فيها ألفاظاً لم ترد في غيرها، وذكر فيها أيضاً أربعة ألفاظ من مزيد الرباعي ومزيد الخماسي ولم يرد من هذين البناءين في بقية سور القرآن إلا لفظ واحد هو (العنكبوت)، واستعمل فيها تركيباً غريبا لم يرد في غيرها ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ...﴾{٢١}.

ووقف البحث عند بعض آيات السورة الشريفة ووازن بينها وبين آيات سور أُخَر تتشابه معها أو تقترب منها فيما تتناوله وانتهى إلى أن جنة الأبرار قد وُصِفَتْ بصفات تنماز (أو تتفرد) بها عما في آيات تلك السور.

١) ينظر: الصحاح (عبر).

٢) ينظر مثلا: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٨١، ٣٠٦، وتفسير الثعالبي ١/ ١٠٧.

٣) استعمل لفظ (التعبير) في: الميزان في تفسير القرآن (٣٦٣) مرة حسب إحصائي.

٤) التعبير القرآني ١٢.

٥) على سبيل المثال، تتكرر الآية: ﴿فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾{١٦} في سورة الرحمن (٣١) مرة، وتتكرر التثنية في هذه السورة كثيرا، ويتكرر لفظ (كان) في النساء أكثر مما يتكرر في أية سورة أخرى.

٦) ينظر: الصحاح (برر).

٧) ينظر: مجمع البيان ١٠/ ٢٨٧.

٨) ينظر: تفسير القمي ٢/ ٤١١، وبحار الأنوار ٢٤/ ٢، و٣٩/ ٢٢٤.

٩) الكشاف ٤/ ٦٥٧ـ٦٥٨. والتكملة من: بحار الأنوار ٣٥/ ٢٤٣–٢٤٤. وينظر: مجمع البيان ١٠/ ٢٠٩–٢١١.

١٠) حسب إحصائي مستفيداً من: دراسات لأسلوب القرآن الكريم.

١١) المصحف الذي لدي يقع في (٦٠٤) صفحة تشغل منه السورة أقل من صفحتين بقليل.

١٢) التبيان في تفسير القرآن ١/ ١٤.

١٣) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل

١٤) وتنظر: الأوجه في إعراب (عيناً) في: تفسير الطوسي ١٠/ ٣٠٣–٣٠٤، وتفسير القرطبي ١٩/ ١٢٦، ٢٦٦.

١٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٤٧ـ٤٤٨.

١٦) الميزان في تفسير القرآن ٢٠/ ١٣١.

١٧) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤/ ١٥.

١٨) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤/ ١٥.

١٩) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤/ ٥ (مقدمة المُرَاجِع).

٢٠) ينظر: تفسير الطبري ٢٩/ ٢٦٢.

٢١) ينظر: مجمع البيان ١٠/ ٢٢٠.

٢٢) ينظر: مجمع البيان ١٠/ ٢٢٠–٢٢٢.

٢٣) تفسير الطوسي ١٠/ ٢١٤.

٢٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن٣/ ٢١.

٢٥) مختصر المعاني ٨١. وقوله تعالى: (ونفخ في الصور..)مقطع من آية في سورة: الكهف ٩٩، ويس٥١، والزمر٦٨، وق٢٠.

٢٦) تفسير الثعالبي ٢/ ٤٥٤.

٢٧) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٣٧.

٢٨) بحار الأنوار ٦٦/ ٢٧٠، وينظر: تفسير الثعلبي ١٠/ ١٠١.

٢٩) مجمع البيان ١٠/ ٢٢٢.

٣٠) تفسير الطبري٢٩/ ٢٧٥.

٣١) ينظر: شرح ابن عقيل ٢/ ٩٣.

٣٢) تفسير الطوسي ١٠/ ٢١٨.

٣٣) ينظر: تفسير الطبري٢٣/ ٦٣، ومجمع البيان ٨/ ٣٠٥.

٣٤) ينظر تفسير الطبري٣٢/ ٦٤ و٢٣/ ٦٦.

٣٥) الميزان في تفسير القرآن١٩/ ١٤.

٣٦) تفسير القرطبي ١٩/ ١٢٥.

٣٧) تفسير القرطبي ١٩/ ١٢٥.

٣٨) تفسير الطوسي ١٠/ ٢١٤.

٣٩) الصحاح (مزج).

٤٠) تنظر: الآية ١٥ من سورة محمد.

٤١) بعض الروايات تذكر أنهم طرقوا الباب في ليلة واحدة. ينظر: تفسير القمي ٢/ ٢٩٨– ٢٩٩، وأسباب نزول الآيات٢٩٦.

٤٢) ينظر مثلا: تفسير القمي ٢/ ٢٩٨-٢٩٩، وأسباب نزول الآيات ٢٩٦، ومجمع البيان ١٠/ ٢٠٩-٢١٠، والكشاف ٤/ ٦٥٧-٦٥٨.

٤٣) ينظر: تفسير الطبري٢٩/ ٢٥٩، وتفسير الطوسي ١٠/ ٢١٠، ومجمع البيان ١٠/ ٢٠٨.

٤٤) ينظر: تفسير الطبري٢٩/ ٢٦٢.

٤٥) ينظر: الصحاح (نضر).

٤٦) تفسير الطوسي ١٠/ ٢١٣.

٤٧) يجري تقديم الجار والمجرور على الفاعل في اللغة للاعتناء به أو لبيان فضله. ينظر: روح

المعاني ٢٢/ ٢٢٦.

٤٨) الصحاح (ذلل).

٤٩) الاسم يدل على الثبوت والفعل يدل الحدوث والتجدد. ينظر: معاني الأبنية العربية ١١.

٥٠) تفسير الطبري ٢٩/ ٢٦٦.

٥١) الكلام على (الكأس) في الآية من سورة الإنسان.

٥٢) ينظر: تفسير الطبري٢٥/ ١٢٣، وتفسير القرطبي١٦/ ١١٣.

٥٣) ينظر: تفسير الطبري٢٥/ ١٢٤، وتفسير ابن كثير ٤/ ٤٨٦.

٥٤) ينظر: تفسير الثعالبي ٥/ ٥٣١.

٥٥) مجمع البيان ١٠/ ٢٢١.

٥٦) ينظر: مجمع البيان ١٠/ ٢٢٣.

٥٧) قال الجوهري: الكوب: كوز لا عروة له والجمع: أكواب. الصحاح (كوب).

٥٨) تفسير الطبري ٣٠/ ٢٠٥.

٥٩) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٣٧.

٦٠) ينظر: الميزان في تفسير القرآن ٢٠/ ١٢٩.

٦١) تفسير الطبرسي ١٠/ ٢١٢.

٦٢) ينظر: تفسير الطبري ٢٩/ ٢٦٧.

٦٣) ينظر: تفسير الطبري٢٩/ ٢٧٣.

٦٤) ينظر: تفسير الطبري ٢٧/ ٤٠، ومجمع البيان ٩/ ٢٧٧، وتفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٠.

٦٥) تفسير الطبري٢٩/ ٢٧٣.

٦٦) روح المعاني٢٩/ ١٩٩.، وينظر أيضاً: الميزان في تفسير القرآن ٢٠/ ١٣١.

٦٧) معاني الأخبار٢١٠.

٦٨) أصول الكافي ٨/ ٩٨.

٦٩) المستدرك على الصحيحين ٣/ ١٣٨، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه [يعني مسلماً والبخاري].

٧٠) ينظر: صحيح البخاري ٤/ ٢١٩.

٧١) ينظر: المستدرك على الصحيحين ٣/ ١٦٧، و٣/ ٣٨١.

٧٢) ينظر: مبحث (الفعل الماضي والفعل المضارع) في موضعه من البحث.

٧٣) ينظر: إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٠٢.

٧٤) ينظر: شرح ابن عقيل ٣/ ٩.

٧٥) وينظر أيضا مبحث: (التكرار سورة الإنسان) في موضعه من البحث.

... المصادر والمراجع ...

١) القرآن الكريم.

٢) أسباب نزول الآيات: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ)، مؤسسة الحلبي وشركاه القاهرة، ١٩٦٨م.

٣) أصول الكافي: أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)، تصحيح: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ.

٤) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن: أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري ت٦١٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٧٩م.

٥) البرهان في علوم القرآن: محمد بن عبدالله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحـ: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، ط١، ١٩٥٧م.

٦) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٣م.

٧) تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري(ت٣٩٣هـ)، تحـ: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.

٨) التعبير القرآني: الدكتور فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد-بيت الحكمة، ١٩٨٧م.

٩) تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، دار المعرفة بيروت، ١٩٩٢م.

١٠) تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن): عبدالرحمن بن محمد الثعالبي المالكي (ت٨٧٥هـ)، تحـ: د.عبد الفتاح أبو سنة وآخرين، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

١١) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن): محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحـ: صدقي جميل العطار، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥م.

١٢) تفسير الطوسي (التبيان في تفسير القرآن): أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحـ: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٣) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، مؤسسة التأريخ العربي بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٤) تفسير القمي: علي بن إبراهيم القمي (ت٣٢٩هـ)، تصحيح: السيد طيب

الجزائري، مؤسسة دار الكتاب، قم إيران، ط٢، ١٤٠٤هـ.

١٥) دراسات لأسلوب القرآن الكريم: محمد عبدالخالق عضيمة، دار الحديث القاهرة ٢٠٠٤م.

١٦) درة التنزيل وغرة التأويل: محمد بن عبدالله الخطيب الإسكافي (ت٤٢٠هـ)، دار الآفاق الجديدة بيروت، ط١، ١٩٧٣م.

١٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (ت١٢٧٠هـ)، دار الفكر بيروت، ١٩٧٨م.

١٨) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: بهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلي (ت٧٦٩هـ)، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة الهداية (أربيل العراق).

١٩) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، دار الفكر بيروت، ١٩٨١م.

٢٠) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تصحيح: محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، ط٥، ١٩٩٥م.

٢١) مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٦٠هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت لبنان، ١٩٩٥م.

٢٢) مختصر المعاني: سعد الدين التفتازاني (٧٩٢هـ)، دار الفكر قم، ط١، ١٤١١هـ.

٢٣) المستدرك على الصحيحين: أبو عبدالله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، دار المعرفة بيروت، ١٤٠٦هـ.

٢٤) معاني الأبنية في العربية: د. فاضل صالح السامرائي، مطبعة جامعة الكويت، ط١، ١٩٨١.

٢٥) معاني الأخبار: أبو جعفر محمد بن علي الصدوق (ت٣٨١هـ) تصحيح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم إيران، ١٣٧٩هـ.

٢٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر للطباعة والنشر، ط٤، ١٩٩٤م.

٢٧) الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم - إيران.